# المقامات في القرنين الثّامن والتاسع الهجريين
## ( دراسة موضوعية)

دكتورة/ علياء سلمان عودة الجوهري الحويطي
جامعة تبوك-الكلية الجامعية بضباء

**مقدمة:**

الحمد لله الذي خلق الإنسان، وعلمه البيان، وأنزل على نبيه الفرقان، ليكون هداية ومنهاجا للعالمين، والصلاة والسلام على رسوله الأمين، إمام الهدى والمتقين، وعلى آله وصحبه وسلم أجمعين، وبعد:

فقد نشأ في ظل الظروف السياسية والاجتماعية والدينية في القرنين الثامن والتاسع الهجريين فن المقامة واستوى ناضجاً له أصوله، ومقوماته، وملامحه، وسماته،و برزت الحركة الأدبية بروزاً واسع النطاق .ولا يخفى ما أصاب الدولة الإسلامية في تلك الفترة من تدهور سياسي، حيث كثرت بها المشاكل، والفتن بالإضافة إلى تغيرات في المجتمع العباسي في أساليب البناء، والأكل، والغناء، والحياة بأسرها.

ولم يكن أدباء فن المقامات في هذا العصر بمعزل عن الحياة السياسية والاجتماعية والدينية المضطربة في هذا العصر، فالأديب ابن بيئته يؤثر فيها ويتأثر بها، لذا لم تخل بعض تلك المقامات من الإشارة إلى تلك الحيوات والحديث عن بعض ملامحها من فتوحات وثورات واضطرابات وغير ذلك.

وقد اقتضت طبيعة الموضوع أن تأتي خطته على ثلاثة مباحث، يسبقها مدخل ، على النحو التالي:

المبحث الأول: **الموضوعات السياسية .**

المبحث الثاني: **الموضوعات الاجتماعية.**

المبحث الثالث: الموضوعات الدينية.

وبعد، فإنني آمل أن أكون قد استوفيت محاور هذا البحث وعناصره ، على نحو يسهم في تقديم ما يفيد في مجال الدراسات الأدبية التي تتخذ من النص الأدبي

ميدانا تطبيقيا للدراسة والبحث ، ويمهد لدراسات وأبحاث أخرى طموح تجلية لموضوعات جديدة في القرنين الثامن والتاسع الهجريين. وعلى الله قصد السبيل.

**مدخل:**

عمد الباحثون العرب الأوائل في تاريخ الأدب العربي أمثال حسن توفيق وأحمد حسن الزيّات ومحمد فائل المرصفي وغيرهم إلى تقسيم العصور الأدبية العربية إلى خمس مراحل أو عصور هي العصر الجاهلي، وعصر ابتداء الإسلام، وعصر الدولة العباسية والأندلس ثم عصر المماليك والعثمانيين وأخيراً عصر النهضة.

ثم إن كثيراً من الكتاب والباحثين ومؤرخي الأدب –أيضاً – أطلقوا تسميات مختلفة لهذا العصر، فمنهم من أطلق عليه عصر الانحطاط[1]، ومنهم من سماه بعصر العثمانيين[2]، وآخر ادعى بأنه "العصر التركي"، بينما البعض الآخر وصفه بعصر المماليك، وهناك من يطلق عليه عصر التتر، إلى غيرها من التسميات والادّعاءات، مع العلم أن الكثير من المؤرخين قسَّموا عصور الانحطاط إلى دورين:

- الدور المملوكي الذي يبدأ بسقوط بغداد٦٥٦هـ.
- الدور العثماني حين استولى العثمانيون على القاهرة سنة ٩٢٣هـ[3]

ورسم الأدباء في هذه العصور الواقع الاجتماعي والسياسي الذي عاشه الناس إبّان ذلك، ولكن اهتمام المماليك بالجيش وانصرافهم عن إكرام الشعراء جعل الكثير منهم يشكو الفقر ويتحول إلى مهن وحرف يقتات منها طعامه فكان منهم الدهان والجزار والكمال والحمامي، والنزر اليسير منهم يعيش من الكتابة. وقد أسرف الأدباء والشعراء في استخدام العامية والألفاظ الصريحة، وكتبوا في الفنون الشعبية.

---

[1] الأدب العربي من الانحدار إلى الازدهار، الدكتور جودت الركابي، ص١٢٠.

[2] الدولة العثمانية، عبدالعزيز محمد الشناوي، ص٩.

[3] الأدب العربي من الانحدار إلى الازدهار، ص١٢٠.

**المبحث الأول:الموضوعات السياسية في مقامات هذا العصر:**

يقسم علماء الإسلام السياسة إلى قسمين هما[1]: سياسة الدين وسياسة الدنيا فسياسة الدين ما أدى إلى قضاء الفرض، وسياسة الدنيا ما أدى إلى عمارة الأرض؛

وكلاهما يرجعان إلى الفعل الذي به سلامة السلطان وعمارة البلدان –لأنَّ من ترك الفرض ظلم نفسه ومن خرب الأرض ظلم غيره.

لقد رأى فقهاء السياسة في الإسلام في قرونه الأولى أن الدين (الشريعة) هو نهج لسياسة الدنيا أو السلوك فيها والتعامل مع صروفها وتقلباتها. إن الشريعة من المقياس والمرجع في أمور العبادة، وأمور السلوك الدنيوي.

أما حسب هذا التصور عند طائفة من العلماء المتأخرين فإن هناك سياستين مختلفتين: إحدهما شرعية للدين، والأخرى حياتية أو دنيوية للدنيا أو للسلوك الحياتي، صحيح أن ماهية السياستين أو جوهرهما هو العدل "ميزان الله في الأرض"، لكن العدل هنا هو الوسط الأرسطي للفضيلة بين رذيلتين، وليس العدل الذي هو الاستواء والاستقامة حسبما يرى الفقيه المسلم. العدل هنا هو الاعتدال أو عدم التطرف.

والأدب أدبان: أدب سياسة، وأدب شريعة، فأدب الشريعة ما أدى الفرض. وأدب السياسة ما عم الأرض[2].

وفي ظل هذه الظروف السياسية [التي تناولتها الباحثة في الفصل الأول] وما أصاب الدولة الإسلامية من تدهور سياسي مريع برز فن المقامة واستوى ناضجاً له أصوله، ومقوماته، ملامحه، وسماته، برزت الحركة الأدبية بروزاً واسع النطاق في عصر كثرت به المشاكل، والفتن بالإضافة إلى تغيرات في المجتمع العباسي في أساليب البناء، والأكل، والغناء، والحياة بأسرها هي التي أصبحت الأساس التي قام عليها المجتمع.

ولم يكن أدباء فن المقامات في هذا العصر بمعزل عن الحياة السياسية المضطربة في هذا العصر فالأديب ابن بيئته يؤثر فيها ويتأثر بها، لذا لم تخل بعض تلك المقامات من الإشارة إلى تلك الحياة السياسية والحديث عن بعض ملامحها من فتوحات وثورات واضطرابات وغير ذلك.

---

[1] أدب الدنيا والدين، علي بن محمد بن حبيب الماوردي، دار الفكر بيروت، ص١٦٢.

[2] المصدر السابق، ص١٦٣.

وفي المقامة الأنطاكية أشار ابن الوردي إلى بعض تلك الملامح السياسية حينما يتحدث عن فتح أنطاكية([1]) وجعلها دار إسلام بعد أن كانت دار كفر، يقول: (حدث إنسان من معرة النعمان قال: كثيراً ما كنت أسمع بين البرية، الثناء على نزه أنطاكية، وأنها قطع لمن لم يصلها، وخرج ولم يدخلها، ولفرط ثنائهم عليها تجهزت للمسير إليها، فلما دخلتها، وشاهدتها وتأملتها طِولها وطَولها، وعجبت لحصانتها والعاصي دائر حولها، ودهشت لاستخراج الظاهر من باطنها وانتعشت لاستدراج الكافر عن مواطنها، حتى قسي قلب القسيان على برج الحرس، وما بكت عين بولص على ما اندرس، وأشهر في التواريخ حديثها، وبدل بالتوحيد تثليثها، وفتح باب جنانها، لمن أصبح من سكانها، فحمدت الله الذي جعلها دار إسلام، وشكرته على هذا الفتح الذي خص أحزاب المسلمين بالأنعام، فانتهيت من بدايتها إلى دار ولايتها، فوجدت والي المدينة شابا ذا سكينة فلما سلمت عليه، وأجلسني إليه، أخذ في مؤانستي وأظهر الابتهاج بمجالستي..([2])).

ففي هذه المقامة نجد ابن الوردي يتحدث عن هذه المدينة التي تحولت بفعل الفتوحات الإسلامية إلى دار إسلام بعد أن كانت تعبد الصليب، ثم يشير إلى أن مكانة والي المدينة الذي وصفه بأنه كان شاباً يحسن المؤانسة.

إن ازدهار الملاحم إنما كان في تلك الفترة التي التقى فيها الشعب العربي بالغرب [كالصراع بين العرب والروم] عند المؤرخين بفترة الحروب الصليبية، فقد اهتز فيه الوجدان العربي هزة قوية، دفعته إلى أن يعتصم بعصر البطولة.

(من خلال هذه الملاحم خلق الإنسان المهزوم لنفسه عالماً سحرياً، يصوغ من خلاله وعيه الاجتماعي، فنياً وجمالياً ومعرفياً. وذلك عن طريق الراوي الجمعي المعبر عن وجدان الشعب بوصفه ــ أي الراوي ــ مصدراً منتجاً في حسه لتصورات مشتركة للمجتمع. تتجلى اجتماعياً في تحقيق الانسجام بين الواقع والطموح، لتحقيق

[1] أنطاكية: بالفتح ثم السكون والياء مخففة وهي في الإقليم الرابع وقيل إن أول من بناها وسكنها أنطاكية بنت الروم بن اليفز بن سام بن نوح عليه السلام أخت أنطاليا باللام ولم تزل أنطاكية قصبة العواصم من الثغور الشامية وهي من أعيان البلاد وأمهاتها موصوفة بالنزاهة والحسن وطيب الهواء وعذوبة الماء وكثرة الفواكه وسعة الخير، معجم البلدان،١/٢٦٦.

[2] ديوان ابن الورد، ص٢٤ ــ ٢٥.

التوازن النفسي للمواطن والربط بين الصراعين: الداخلي والخارجي، والموقف من المرأة، واللون، والجنس والعبودية ...إلخ. ويتجلى فنياً في السرد وخطابه الفني، ونمو الشخصيات وترتيبها، وانقسامها إلى خير مطلق وشر مطلق، وتفاعلاتها مع الموضوع وتجسيدها للمعطيات الموضوعية في الواقع، كما تتجلى جمالياً في قوالب حسية معينة، كتصور القيمة الجمالية، والتعبير عنها، وتدخل في هذا الإطار أشكال السلوك ذات الأهمية الجمالية التي تظهر في الاحتفالات والطقوس والعادات وطراز البيوت، وترتيبها الداخلي والأزياء ومواصفات الهيئة الجميلة والمقاييس الشائعة لجمال المرأة، كما تظهر في ذوق الجمهور والفئات الاجتماعية المختلفة والقواعد السائدة في النقد والنظرة الجمالية والتقاليد الفنية)([1]).

ويشير القلقشندي إل السياسة في مقاماته حينما تحدث عن فضل الكتابة فيقول: (فالكتابة قانون السياسة ورتبتها غاية رتب الرياسة عندها تقف الأناقة وإليها تنتهي مناصب الدنيا بعد الخلافة والكتاب عيون الملوك المبصرة وآذانهم الواعية وألسنتهم الناطقة وعقولهم الحاوية بل محض الحق الذي لا تدخله الشكوك وإن الملوك إلى الكتاب أحوج من الكتاب إلى الملوك وناهيك بالكتابة شرفاً وأعلى بذلك رتبة وكفى أن صاحب السيف والعلم يزاحم الكاتب في قلمه ولا يزاحم الكاتب صاحب السيف والعلم في سيفه وعلمه، وعلى الجملة فهم الحاوون ولكل وشأن نبيل الكرم شعارهم والحلم دثارهم والجود جادتهم والخير عادتهم والأدب مركبهم واللطف مذهبهم...)([2]).

وقد أشار إلى مكانة الكتابة وبيَّن فضلها الجاحظ الذي يقول: (...والكتاب هو القطب الذي عليه مدار علم ما في العالم وآداب الملوك، وتلخيص الألفاظ، والغوص على المعاني السداد، والتخلص إلى إظهار ما في الضمائر بأسهل القول، والتمييز بين الحجة والشبهة وبين المفرد والمشترك، وبين المقصور والمبسوط، وبين ما يحتمل التأويل مما لا يحتمله، وبين السليم والمعتدل)([3]).

وبيَّن صاحب العقد الفريد ابن عبد ربه أيضاً شرف الكتَّاب وفضلهم فقال: (فمن فضلهم قول الله تعالى على لسان نبيه (ﷺ): (علم بالقلم علم الإنسان ما لم

---

[1] دفاع عن الفلوكلور، عبدالحمد يونس، الهيئة المصرية١٩٧٣، ص١٣٩.

[2] صبح الأعشى، ١٣٠/١٤.

[3] الرسائل: عمرو بن عثمان الجاحظ، دار الجيل، بيروت، ص٢٧٨.

يعلم)[١]، وقوله تعالى: (كراما كاتبين)[٢]، وقوله : (بأيدي سفرة، كرام بررة)[٣]، وللكتاب أحكام بينة، كأحكام القضاة، ويعرفون بها، ويُنسبون إليها، ويتقلدون التدبير وسيارة الملك بها، دون غيرهم، وبهم يقام أود الدين، وأمور العالمين.

فمن أهل هذه الصناعة: علي بن أبي طالب، كرم الله وجهه، وكان مع شرفه ونُبله وقرابته من رسول الله (ﷺ)، يكتب الوحي، ثم أفضت إليه الخلافة بعد الكتابة)[٤].

وأورد أيضاً من فضائل الكتابة: (كتاب الملوك عيونهم الناظرة، وآذانهم الواعة وألسنتهم الناطقة، والكتابة أشرف مراتب الدنيا بعد المحلافة، وهي صناعةٌ جليلة تحتاج إلى آلات كثيرة)[٥].

وقد بيَّن العلماء ما يحتاجه الكاتب في كتابته ومن ذلك ما أورده صاحب نهاية الأرب: (فإن احتجت إلى مخاطبة الملوك والوزراء والعلماء والكتاب والأدباء والخطباء والشعراء وأوساط الناس وسوقتهم، فخاطب كلا على قدر أبهته وجلالته، وعلوه وارتفاعه، وفطنته وانتباهه، ولكل طبقة من هذه الطباق معان ومذاهب يجب عليك أن ترعاها في مراسلتك إياهم في كتبك)[٦].

وأشار ابن المعظم في المقامة الجحجاحية إلى مقام الخلافة وأهميتها وعظم مكانتها واستدلَّ على ذلك بالشواهد من القرآن الكريم والسنة النبوية، قال:

(... فاستدللت إلى باب السلطان، فأشاروا إلى فقيه فقير، ضعيف حقير، فاستبعدت ذلك جداً، ثم لم أجد من الاستكشاف بداً، قلت وما الدليل على كونه سلطاناً، قالوا بدليل الكتاب والسنة، أما الكتاب فقوله تعالى: (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم)[٧] فقد قال مجاهد والضحاك وقتادة: أن المراد من أولي الأمر والعلماء

---

[١] سورة العلق، الآيتان ٤ ــ ٥.

[٢] سورة الانفطار، الآية ١١.

[٣] سورة عبس، الآيتان، (١٥ــ ١٦).

[٤] العقد الفريد، أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى١٩٩٩م، ٣٦/٢.

[٥] العقد الفريد، ٤٤/٢.

[٦] نهاية الأرب في فنون الأدب، أحمد بن عبدالوهاب النويري، دار الفكر، بيروت، ٣٢٢/٢.

[٧] سورة النساء، الآية ٥٩.

وهو عالم ريان، مع أنه ظامئ طيان، وله عزة عالية، وإن كانت عليه بزة بالية، أما السنة فإن رسول الله (ﷺ) ولاه الخلافة والسلطنة، أما السلطنة فقوله (ﷺ): (العالم سلطان الله في أرضه فمن وقع فيه فقد هلك)[1] وأما الخلافة ففي أحاديث منها قوله (ﷺ): (ألا أدلكم على خلفائي من بعدي، قالوا ومن هم يا رسول الله قال: هم جملة القرآن والحديث لله وفي الله)[2].

إلى أن قال: (... وقال (ﷺ): (الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر خليفة الله في الأرض وخليفة كتابه وخليفة رسوله...)[3].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (يجب أن يعرف أنَّ ولاية أمر الناس من أعظم واجبات الدين بل لا قيام للدين ولا للدنيا إلا بها. فإن بني آدم لا تتم مصلحتهم إلا بالاجتماع لحاجة بعضهم إلى بعض، ولابد لهم عند الاجتماع من رأس حتى قال النبي (ﷺ): (إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم)[4] رواه أبو داود، من حديث أبي سعيد، وأبي هريرة

وروى الإمام أحمد في المسند عن عبدالله بن عمرو، أن النبي (ﷺ)، قال: (لا يحل لثلاثة يكونون بفلاة من الأرض إلا أمروا عليهم أحدهم)[5].

فأوجب (ﷺ) تأمير الواحد في الاجتماع القليل العارض في السفر، تنبيهاً في ذلك على سائر أنواع الاجتماع ولأن الله تعالى أوجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا يتم ذلك إلا بقوة وإمارة وكذلك سائر ما أوجبه من الجهاد والعدل، ولإقامة الحجج والجمع والأعياد ونصر المظلوم وإقامة الحدود لا تتم إلا بالقوة والإمارة؛ ولهذا روي (إن السلطان ظل الله في الأرض)، ويقال "ستون سنة من إمام جائر أصلح من

---

[1] كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، علي بن حسام الدين المتقي الهندي، مؤسسة الرسالة، بيروت١٩٨٩م، ٢٣٤/١٠، حديث ٢٨٦٧٣.

[2] كنز العمال،٢٦٧/١٠، حديث ٢٨٧٧٢.

[3] المقامات الاثنتا عشرة، الشيخ محمد بن المعظم، ص١٢.

[4] سنن أبي داود. أبوداود سليمان بن الأشعث السجستاني؛ تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد. ـــــ بيروت: دار الفكر،(كتاب الجهاد)، ٤٢/٢ .٨٧ باب في القوم يسافرون يؤمرون أحدهم. حديث ٢٦٠٨.

[5] المسند، أحمد بن حنبل أبوعبدالله الشيباني. ـــــ القاهرة: مؤسسة قرطبة، حديث (٦٦٤٧)، ١٧٦/٢.

ليلة واحدة بلا سلطان" والتجربة تبين ذلك)[١]. فالواجب اتخاذ الإمارة ديناً وقربة يتقرب بها إلى الله؛ فإن التقرب إليه فيها بطاعته وطاعة رسوله من أفضل القربات، وإنما يفسد فيها حال أكثر الناس لابتغاء الرياسة أو المال بها. وقد روى كعب بن مالك عن النبي (ﷺ) أنه قال: (ما ذئبان جائعان أرسلا في زريبة غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه)[٢]، فأخبر أن حرص المرء على المال والرياسة يفسد دينه، مثل أو أكثر من إفساد الذئبين الجائعين لزريبة الغنم[٣].

وقد أخبر الله تعالى عن الذي يؤتى كتابه بشماله أنه يقول (مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ *هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ)[٤].

وغاية مريد الرياسة أن يكون كفرعون، وجامع المال أن يكون كقارون، وقد بين الله تعالى في كتابه حال فرعون وقارون، فقال: (أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ)[٥].

**المبحث الثاني : الموضوعات الاجتماعية في مقامات هذا العصر:**

لا شك إن اهتمام علم اجتماع الأدب، أو علم اجتماع النّص الأدبي بالعلاقة بين الأدب والمجتمع يؤكد أهميتها، ومن ثم – بالضرورة – العلاقة بين الأديب ومجتمعه، وهي علاقة توسم بأنها تبادلية بين الأدب والمجتمع فكلاهما يؤثر في الآخر.

ويقال إن "للأدب انعكاسات اجتماعية عديدة، وهو في حد ذاته يعد انعكاساً اجتماعياً حتى في أكثر موضوعاته خصوصية. فهو نشاط اجتماعي قبل أن يكون نشاطاً لغوياً. حتى اللغة تفسر من منظور اجتماعي قبل أن تفسر من منظور آخر"[٦]،

---

[١] السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية. أحمد بن عبدالحليم بن تيمية الحراني. ــ القاهرة: دار المعرفة للطباعة والنشر، ص١٦٨.

[٢] الجامع الصحيح سنن الترمذي: الترمذي، محمد بن عيسى أبوعيسى؛ تحقيق أحمد محمد شاكر وآخرون. ـــ بيروت: دار إحياء التراث العربي، ٤/ ٥٨٨ كتاب الزهد، حديث ٢٣٧٦.

[٣] السياسة الشرعية، مرجع سابق، ص١٧٠.

[٤] سورة الحاقة، الآيتان: ٢٨-٢٩.

[٥] سورة غافر، الآية ٢١.

[٦] الثقافة والعولمة: صراع الهويات والتحديات. أحمد فراج، الهيئة العامة لقصور الثقافة – كتاب أبحاث المؤتمر الرابع لإقليم غرب ووسط الدلتا سنة ٢٠٠٣م، ص٩٦.

ومن ثم فالأدب قابل للتعريف من منظور اجتماعي على أنه مجموعة من القيم، أو التعبير عنها.

وعلى مدى التاريخ الأدبي كله لم ينكر أحد العلاقة بين الأدب والمجتمع وإنما قد ينشأ الخلاف حول فهم طبيعة هذه العلاقة. ومن ثم كانت قضية العلاقة بين الأدب والمجتمع وما تزال موضوعاً شديد الأهمية لفهم الأدب ودراسته، وبدونها لا يمكن فهم الأدب ولا المجتمع، ورغم أن مصطلحي الأدب والمجتمع لم يحملا نفس الدلالات الحديثة عند القدماء، إلا أننا نستطيع أن نلمح إسهامات حول هذه العلاقة منذ القدم[١].

ولنا ان نتأمل صلة الأدب بالمجتمع في أقد صور الأدب "ولنرجع إلى الوراء إلى أعمق صورة للشعر، وهي الشعر القصصي عند اليونان، صورة الإلياذة فسنجدها لا تتغنى بعواطف فردية، وإنما تتغنى بعواطف الجماعة السونانية لعصرها، مصورة حروبها بطراودة ومن استبسلوا فيها من الأبطال، ومن هنا نشأ القول بأن ناظمها ليس هو هوميروس وحده[٢].

وتظل العملية الإبداعية في حقيقتها عملية تأسيسية تأخذ منطلقها من الواقع – مهما كان نوعه – باعتباره مرجعية أساسية ، كما تستمر في نسج بنياتها وشبكاتها في الآفاق التي يستشرفها المبدع باعتباره مالكاً لملكة النبوة الأدبية، وباعتباره الناطق باسم الوعي الجماهيري في المجتمع الذي ينتمي إليه، وباعتباره ثالثاً حاملاً لرؤية أو رؤى ومستنداً إلى مرجعية ثقافية ومخزون فكري، فهو ليس ذلك المتزهد الذي ينزوي إلى عمق ديره أو صومعته وينعزل عن المجتمع بكل تطوراته ليسلك مسلك الصوفي في نزعاته الوجدانية وشطحاته الفكرية بعيدا عن هموم الذات المنصهرة في بوتقة الجماعة الكلية، بل هو جزء لا يتجزأ من واقع متحول في تركيبته لا يهدأ بل يشارك في كل ما يمس وجدان الأمة سواء أكان على الصعيد الوطني أم العربي القومي، أو العالمي بإنسانيته الشمولية.

---

١ المدخل الاجتماعي للأدب. سيد البحراوي. ــ القاهرة: دار الثقافة العربية، ٢٠٠١م، ص٣.

٢ المدخل الاجتماعي للأدب. شوقي ضيف. ــ ط٨. ــ القاهرة: دار المعارف، ص٩٦.

ولنا أن نتوقف عند شاعر مثل (عمرو ابن كلثوم)[١] الذي دخل التاريخ بقصيدة واحدة تناقلتها الألسنة، وغنتها القوافل جيئة وذهاباً، وأكثر بنو قبيلته (تغلب) من إنشادها جيلاً بعد جيل حتى قال فيهم الشاعر:

**ألهى بني تغلب عن كل مكرُمة قصيدة قالها عمرو بن كلثوم**

**يفاخرون بها مذ كان أولهم يا للرجال لشعر غير مسئوم[٢]**

والتساؤل الآن: لماذا دخل عمرو بن كلثوم التاريخ الأدبي بمثل هذه القصيدة الوحيدة، ولماذا حفظها بنو تغلب وتناقلوها وظلوا يفاخرون بها جيلاً بعد جيل؟ هل لتدفق المعنى وقوة السبك وتلاحم النسج، وجودة الصياغة وحسن لعبارة، وسلامة الأسلوب، أم لأنها بجانب هذا ارتبطت بحياة القبيلة ارتباطاً مباشراً، وبما دار من حروب بينها وبين قبيلة (بكر) فيما عرف بحرب البسوس ولا شك أن القصيدة تتغنى بأمجاد القبيلة وبطولاتها وتصور ما كان عليه رجالها من شجاعة وإقدام وعز وجاه، هذا من جهة، ومن جهة أخرى ارتبطت بموقف يدلل به الشاعر شخصياً على الإباء والشجاعة والجرأة، وهو ما تضمنته قصته مع (عمرو بن هند) التي انتهت بمقتل الأخير.

ومما سبق يتضح أن العلاقة بين الأدب والمجتمع لم تكن هامشية في التاريخ الأدبي، بل كانت على درجة من الأهمية، ومحل اهتمام الفلسفات التي تبنتها، وقد لاحظنا أن ثمة قضايا فرعية كثيرة فلسفية ونقدية انطرحت على ضفاف هذه العلاقة في مسيرتها عبر التاريخ الأدبي كله، وقد قامت حولها أيضاً مدارس أدبية تتبناها وتعلي من شأنها وتراها جوهر الأدب، فيما قامت مدارس أخرى تحاول أن توازن في نظرتها إلى جوهر الأدب بين الشكل والمضمون، كما قامت مدارس أخرى تتنكر لهذه العلاقة،

---

[١] عمرو بن كلثوم بن مالك بن عتاب، من بني تغلب، أبوالأسود: شاعر جاهلي: من الطبقة الأولى، ولد في شمالي جزيرة العرب في بلاد ربيعة، وتجول فيها وفي الشام، والعراق ونجد، وكان من اعز الناس نفساً، وهو من الفتاك الشجعان، ساد قومه (تغلب) وهو فتىً، وعمر طويلاً، وهو الذي قتل الملك عمرو بن هند، أشهر شعره معلقته التي مطلعها: "ألا هبي بصحنك فاصبحينا" يقال: إنها كانت في نحو ألف بيت، وإنما بقى منها ما حفظه الرواة، وفيها من الفخر والحماسة العجب. (انظر: الأعلام للزركلي، ٥/ ٨٤).

[٢] الشعر والشعراء. ابن قتيبة، عبدالله بن مسلم. ــ القاهرة: دار الحديث، ١٩٩٦م، ص٤٣.

وإن كانت لا تذكرها، طارحة مفاهيم أخرى بديلة حول الأدب، وحددت له وظائف أخرى، واعتبرته محض هروب من الواقع والمجتمع وقضاياه.

والظاهرة العامة التي اتسمت بها المقامة عامة هي ظاهرة النقد والثورة وكشف العيوب الإنسانية، والاجتماعية ووضع البديل لها في بعض الأحيان، ومن هنا تبدو الأهمية الحضارية، والتاريخية لهذا الفن.

وفن المقامة يتلمس علاج المجتمع من خلال اللفظ، إن المتلقي يعجب بالصياغة، وحسن السبك، وجمال السجع، فينشغل بها ولا يفرغ لما تهدف إليه المقامة في مضمونها إلا بعد اكتمال المقامة وعمق التفكير في المضمون.

وقد تناول النقاد قديما وحديثاً الدور الاجتماعي للأدب وقد أشار الجاحظ إلى ذلك في قوله: "وقد يتكلم المغلاق الذي نشأ في سواد الكوفة بالعربية المعروفة ويكون لفظه متخيراً فاخراً ومعناه شريفاً كيماً ويعلم من ذلك السامع لكلامه ومخارج حروفه أنه نبطي وكذلك إذا تكلم الخراساني على هذه الصفة فإنك تعرف مع إعرابه وتخير ألفاظه في مخرج كلامه أنه خراساني، وكذلك إن كان من كتاب الأهواز ومع هذا إنا نجد الحاكية من الناس يحكي ألفاظ سكان اليمن مع مخارج كلامهم لا يغادر من ذلك شيئاً وكذلك تكون حكايته للخراساني والأهوازي والزنجي والسندي والحبشي وغير ذلك، نعم حتى نجده كأنه أطبع منهم فأما إذا حكى كلام الفأفاء فكأنما قد جمعت كل أطرافه في كل فأفاء في الأرض في لسان واحد كما أنك تجده يحكي الأعمى بصور ينشئها لوجهه وعينه وأعضائه لا تكاد تجد من ألف أعمى واحداً يجمع ذلك كله فكأنه قد جمع جميع طرف حركات العميان في أعمى واحد)[1].

وفي المقامة الطرماحية يصور ابن المعظم جانب من حياة المجتمع في عصره حين حكى بلسان الراوي الطرماح عن خصمين اختصما إلى أحد القضاة، حيث قال: (... حكى الطرماح قال: جبت المهامه والقفار، حتى وقعت في بلد ظفار، فدخلت على قاضيها أبي سماعة، فجلست عنده ساعة، فإذا أنا بخصمين يتخاصمان لديه ويتنازعان بين يديه، فجعل أحدهما يقول للآخر: يا شديد الكفر والإلحاد، ويا ظالم يا قواد، إذ انت

[1] البيان والتبيين. الجاحظ؛ أبوعثمان عمرو بن بحر؛ تحقيق جويدي. ـــ بيروت: المكتبة العصرية، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م، ١/ ٥١.

الذي تاكل الميتة والدم، وتشهد على ما لا ترى وتعلم، وتحب الفتنة وتبغض الحق، وتهريق دم المسلمين...)[1].

وفي المقامة الأنطاكية يصور بن الوردي طبقات مجتمع المدينة في حوار بين الراوي ووالي المدينة، يقول ابن الرومي: (... قال: لقد جمعت هذه المدينة بين عرب وروم، وأنا معهم في الحي القيوم، لا أطيق فيهم قراراً، ولو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا، ومن يطيق الجمع بين الضدين، أم من يقدر على موالاة ندين، وكيف يظفر ساكن أنطاكية بنيل أرب، وقد حنيت أضلعه العجم على بغض العرب...)[2].

فالراوي يبين هنا طبقات سكان هذه المدينة التي جمعت مزيج من العرب والروم، كما يصور لنا نوع العلاقة التي تربط بين هذين الفريقين وصفهما بأنهما ضدين.

وفي المقامة الضمضمية يتحدث ابن المعظم عن ملمح اجتماعي آخر وهو موضوع الزواج، فقد حكى بلسان الراوي ابن ضمضم عن كيفية اختيار الزوجة وصفاتها، فقال: (حكى ابن ضمضم قال: اشتد بي قلقي وسهادي، واقض رقادي ومهادي، حين شرد علي جملي، وعطل لذلك شغلي وعملي، فعزمت على التأهل طلباً للتسهيل، فرأيت أن أشاور أوّلاً حبيباً لبيباً، وأُشير أديباً أريباً، فأتيت قاضي كيرنك فشاورته فيما دهاني، وذكرت له ما عراني وعناني، فقال: تزوج من النساء ما شئت إلا ثلاثاً: الأنانة[3] والحنانة[4] والمنانة[5]، واحذر منهن ثلاثاً: الشهيرة[6] واللهبرة[7] والنهبرة[8]،

---

[1] المقامات الإثنا عشر، الشيخ محمد بن المعظم، ص٢٢.

[2] ديوان ابن الوردي، ص٢٥.

[3] الأنانة: كثية الأنين، وقيل الأُنة الكثير الكلام والبث والشكوى (لسان العرب، ٢٨/١٣).

[4] امرأة حنانة: تحن إلى زوجها الأول وتعطف عليه، وقيل هي التي تحنُّ على ولدها الذي من زوجها المفارقها (لسان العرب، ١٣/ ١٢٨).

[5] المَنُون من النساء: التي تُزوج لمالها فهي أبداً تمُنُّ على زوجها والمنانة كالمنون (لسان العرب، ١٣/ ٤١٥).

[6] الشهيرة: العجوز الكبيرة (لسان العرب، ١/ ٥١٠).

[7] اللهبرة: الطويلة الهزيلة (لسان العرب، ٥/ ١٥٨).

[8] امرأة نهبرة: أي طويلة مهزولة، وقيل هي التي أشرفت على الهلاك من النهابر المهالك، وأصلها حبال من رمل صعبة المرتقى (لسان العرب، ٥/ ٢٣٩).

واتق منهن ثلاثاً: الزرقاء والخرقاء[1] والحمقاء، وجانب منهن ثلاثاً: الهلوك[2] والبروك[3] والفروك[4]...)[5].

ومما سبق يتضح لنا أن ابن المعظم يتحدث عن اختيار الزوجة وضرورة توفر بعض الشروط في هذا الاختيار، والدين الإسلامي قد دعا إلى ضرورة اختيار الزوجة الصالحة، لأن الزوجة الصالحة المحافظة على دينها سوف تسعى جاهدة إلى تربية ابنها التربية الإسلامية وتحافظ عليه ليكون لبنة صالحة في المجتمع، كما أنّها ستربيه على الطاعة والأعمال الصالحة، اما المرأة السيئة في خلقها ودينها؛ فإنها عادة تهمل نشئها وتربية ابنائها.

وكما ورد في حديث البخاري عن أبي هريرة (ﷺ) عن النبي (ﷺ) قال: (تنكح المرأة لأربع لمالها ولحسبها وجمالها ولدينها فاظفر بذات الدين تربت يداك)[6].

وقوله: فاظفر بذات الدين، في حديث جابر: [فعليك بذات الدين][7] والمعنى أن اللائق بذي الدين والمروءة أن يكون الدين مطمح نظره في كل شيء لا سيما فيما تطول صحبته فأمره النّبي (ﷺ) بتحصيل صاحبة الدين الذي هو غاية البغية.

وقوله: تَرِبَتْ يداك: أي لصقتا بالتراب، وهي كناية عن الفقر وهو خبر بمعنى الدعاء لكن لا يراد به حقيقته وبهذا جزم صاحب العمدة [8].

فأول الشروط وأهمها التي يجب ثأن تتوفر في الزوجة: الدين، كما قالل تعالى: (وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ)[9]، ولقوله تعالى: (وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ)[10]، وقوله تعالى: (قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ)[11].

---

[1] المرأة الخرقاء: السيئة المنطق والعمل (لسان العرب، ١٠/ ٢٥٤).

[2] الهلوك من النساء: الفاجرة الشبقة المتساقطة على الرجال سميت بذلك لأنها تتهالك أي تتمايل وتتثني (لسان العرب، ١٠/ ٥٠٣).

[3] البروك من النساء: التي تتزوج زوجاً ولها ابن مدرك من زوج آخر (لسان العرب، ٣/ ٤٨٠).

[4] الفَرِك والفِرك:أن تُبْغِض المرأة زوجها، وقيل الفِرك بغْضَة الرجل لامرأته أو بغضه امرأة له (لسان العرب،١٠/ ٤٧٣).

[5] المقامات الإثنتا عشر، الشيخ محمد بن المعظم، ص٢٤.

[6] صحيح البخاري، ٥/ ١٩٥٨ في ٧٠ كتاب النكاح ١٦ باب الأكفاء في الدين حديث (٤٨٠٢).

[7] مسند أحمد بن حنبل، ٣/ ٣٠٢، حديث (١٤٢٧٥).

[8] فتح الباري، ٥/ ١٣٦.

[9] سورة البقرة، الآية ٢٢١.

[10] سورة النور، الآية٢٦.

[11] سورة النساء، الآية ٣٥.

وإذا انضم إلى الدين الجمال فبها ونعمت، وقد رغّب النبي (ﷺ) وقد سئل: (أي النساء خير؟) قال: "التي تسره إذا نظر وتطيعه إذا أمر ولا تخالفه في نفسها وما لها بما يكره)[1] .

وقد أكثر الأدباء من ذكر وصف النساء على نحو ما أورده ابن المعظم؛ فقد أورد المعافي بن زكريا في كتاب الجليس الصالح قريباً مما جاء في مقامة ابن المعظم، قال: (كان رجل في من كان قبلنا حلف أن لا يتزوّج امرأة حتى يستشير مائة نفس، وإنه استشار تسعة وتسعون رجلاً فاختلفوا عليه، فلما بقى رجل واحد قال: أوّل من يفجأني من هذا الطريق استشيره ثم آخذ بقوله. فتلقاه رجل شيخ على قصبة، ومعه صبيان حوله، قال له: إني حلفت ألا أتزوج حتى استشير مائة رجل، وقد استشرت تسعة وتسعين رجلاً فاختلفوا فقلت: أول من يفجأني من هذا الطريق استشيره، فجاء شيخ راكب على قصبة، ثم لم يجد بداً منه، فقال: يا عبدالله إني أريد أن اتزوج فأشر عليَّ، فقال له: النساء ثلاث، ثم مضى. قال: قلت في نفسي والله ما قال لي أحدٌ مثل ما قاله هذا لأتبعنه، قال: فاتبعته حتى لحقته، قلت: يا عبدالله قلت لي النساء ثلاث، قال: نعم واحدة لك وواحدة عليك وواحدة لا لك ولا عليك. قال: ثم مضى فاتبعته فسألته عن تفسير ما قال، فقال: أما البكر فهي لك ولا عليك؛ وأمّا الحنانة فهي الثيب التي قد كان لها زوج فهي لا لك ولا عليك؛ وأما المنانة فالثّيّب التي لها ولدٌ فهي التي عليك ولا لك)[2].

وقيل أوصى رجل ابنه فقال له: يا بني إياك والرقوب الغضوب القطوب الغلباء الرقباء اللفوت الشوساء الحنانة المنانة. والرقوب: التي ترقبه أن يموت فترثه، والغلباء الرقباء: الغليظة الرقبة واللفوت: التي عينها لا تثبت في موضع، إنما همها أن تغفل عنها فتغمز غيرك، والشوساء: المشاوسة النّظر من التيه[3]. وقد ورد في الحديث النبوي الشريف أن زيد بن حارثة جاء إلى النبي (ﷺ) فقال له: (تزوجت يا زيد؟ قال: لا يارسول الله، قال تزوج تستعف، ولا تتزوج خمساً لا تتزوج شهبرة، ولا لهبرة، ولا

---

[1] مسند أحمد بن حنبل، ٢/ ٢٥١ حديث ٧٤٥١.

[2] الجليس الصالح والأنيس الناصح. المعافي بن زكريا؛ تحقيق محمد مرسي الخولي. ـــ دمشق: دار الفكر، ١٩٨١م، ١/٤٧١.

[3] سمط اللآلي في شرح أمالي القالي. عبدالعزيز الميمني، ص٢٥٤.

نهبرة، ولا هيدرة، ولا لفوتا، قال زيد: والله ما أعرف مما قلت شيئاً، قال: أما الشهيرة: فالزرقاء البذيئة، وأما اللهبرة: فالطويلة الهزيلة. وأما النهبرة: فالعجوز المدبرة، وأما الهيدرة: فالقصيرة القبيحة، وأما اللفوت: فذات الولد من غيرك)[١].

وفي المقامة العنبسية يصور ابن المعظم جانب من جوانب المجتمع في جكاية الراوي: (دخلت على قاضي قنسرين[٢] حيث بليت بالحوائج الجوائح ومنيت بالنسوة النوائح النوابح، فقلت له: أبيت اللعن أنك اليوم سيد فاضل، وحر عاقل وحاتكم زمانه، وقريع أقرانه، وأنت لكل صافي صفي، ولكل حافي حفي، وأنت لكل راع نجيب، ولك داع مجيب، وأنت لكل حائم حامي، ولكل هائم هامي، وأنت قرم القوم، ولم تزل تلازم الصوم، وليس يفوتك فرض ولا سنة، ولا ذنب ولا نافلة، وأنت عابد الحق، وأجزل الخلق...)[٣].

قال النبي (ﷺ): (القضاء ثلاثة، اثنان في النار وواحد في الجنة)[٤]، فاللذان في النار أحدهما من يقضي ولم يعلم، والآخر من يعلم فيقضي بغير الحق، وأما الذي في الجنة فهو الذي يعلم ويقضي بالحق. قال (ﷺ): إن مع القاضي ملكين يسددانه ويوفقانه، فإن عدل أرشداه وأعاناه، وإن جار قذفاه في النار[٥].

وقد حُث الحاكم على التسوية بين الناس فقد قال تعالى: (وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)[٦]. وقال أيضاً: (فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)[٧]. وقال: (وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ)[٨].

---

١ ذكره ابن الأثير في النهاية في غريب الحديث والأثر، ٢/ ١٢٥٣.

٢ قنسرين: بكسر أوله وفتح ثانيه وتشديده وقد كسره قوم: هي مدينة بالشام كان فتحها على يد أبي عبيدة بن الجراح (رضي الله عنه) في سنة (١٧هـ)، معجم البلدان، ٤/ ٤٠٣.

٣ المقامات الإثنا عشرية. الشيخ محمد بن المعظم، ٢٧-٢٨.

٤ سنن أبي داود، ٢/ ٣٢٢ حديث (٣٥٧٣).

٥ محاضرات الأدباء. الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد، ١/ ٨٧.

٦ سورة المائدة، الآية٤٥.

٧ سورة المائدة، الآية٤٧.

٨ سورة المائدة، الآية٤٩.

وأوجب الدين الإسلامي على القضاة التسوية في الحكم بين القوي والضعيف، والعدل في القضاء بين المشروف والشريف، ولا يتبع هواه في تقصير بحق أو ممايلة لمبطل[١].

قال اله تعالى: (يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ)[٢].

وقد استوفى عمر بن الخطاب (ﷺ) في عهده إلى أبي موسى الأشعري شروط القضاء وبين أحكام التقليد حين ولاه القضا[٣].

ويقدم القلقشندي صورة أخرى من صور المجتمع حينما يتحدث عن المهن والحرف، ويشير إلى أن الإنسان لابد له من حرفة يتعلق بها ويعيش منها، يقول: (وهذه المقامة التي قدمت الإشارة إليها في خطبة هذا الكتاب إلى أني كنت أنشأتها في حدود سنة إحدى وتسعين وسبعمائة عند استقراري في ديوان الإنشاء ووسمتها بالكواكب الدرية في المناقب البدرية ووجهت القول فيها لتقريظ المقر البدري بن المقر العلائي بن المقر المحيوي بن فضل الله صاحب ديوان الإنشاء بالأبواب السلطانية بالديار المصرية يومئذ جعلت مبناها على أنه لابد للإنسان من حرفة يتعلق بها ومعيشضة يتمسك بسببها وأن الكتابة هي الحرفة التي لا يليق بطالب العلم سواها ولا يجوز له العدول عنها إلى ما عداها مع الجنوح فيها إلى تفضيل كتابة الإنشاء وترجيحها وتقديمها على كتابة الديونة وترشيحها وقد اشتملت على بيان ما يحتاج إليه كاتب الإنشاء من المواد وما ينبغي أن يسلكه من الجواد مع التنبيه على جملة من المصطلح بينت مقاصده ومهدت قواعده على ما ستقف عليه في خلال مطاويها إن شاء الله تعالى، وهي[٤]:

---

١ نهاية الأرب في فنون الأدب، ٢/٢٤٤.

٢ سورة ص، الآية٢٥.

٣ سنن البيهقي الكبرى. البيهقي أحمد بن الحسين بن علي بن موسى؛ تحقيق محمد عبدالقادر عطا. ـــ مكة المكرمة: مكتبة دار الباز، ١٩٩٤م، ١٠/ ١٥٠.

٤ صبح الأعشى، ١٤/١٢٦.

حكى الناثر ابن نظام قال لم ازل من قبل أن يبلغ بريد عمري مركز التكليف ويتفرق جمع خاطري بالكلف بعد التأليف أنصب لاقتناص العلم أشراك التحصيل وأنزه توحيد الاشضتغال عن إشراك التعطيل مشمراً عن ساق الجد ذيل الاجتهاد مستمراً على الوحدة ملازمة الانفراد انتهز فرصة الشباب قبل توليها زاغتنم حالة الصحة قبل تجافيها قد حالف جفني السهاد وخالف طيب الرقاد أمرن النفس على الاشتغال كي لا تمل فتنفر عن الطلب وتجمح عن مميلاً جانب قصدها عن ركوب الأهواء والميل إليها صارفاً وجه غايتها عن المطالب الدنيوية والركون إليها متخيراً أليق الأماكن وأوفق الأوقات قانعاً بأدنى العيش راضياً بأيسر الأقوات أونس من شوارد العقول وحشيها وأشرد من روابض المنقول حوشيها وألتقط ضالة الحكمة حيث وجدتها وأقيد نادرة العلم حيث أصبتها مقدماً العلوم أشرفها ومؤثراً من الفنون ألطفها متمداً من ذلك ما تألفه النفس ويقبله الطبع مقبلاً منه على ما يستجلي حسنه النظر ويستحلي تذكره السمع منتقياً من الكتب أمتعها تصنيفاً وأتمها تحريراً وأحسنها تأليفاً منتخباً من أشياخ الإفادة أوسعهم علماً وأكثرهم تحقيقاً ومن أقران المذاكرة أروضهم بحثاً وألطفهم تدقيقاً عارفاً لكل عالم حقه وموفياً لكل علم مستحقه قد استغنيت بكتابي عن خلي ورفيقي وأثرت بيت خلوتي على شفيقي وشقيقي أجوب فيافي الفنون لتظهر لي طلائع الفوائد فأشهدها عياناً وأجول في ميدان الأفكار لتلوح لي كمائن المعاني فلا أثني عنها عناناً وأشن غارات المطالعة على كتائب الكتب فأرجع بالغنيمة وأهجم على حصون الدفاتر ثم لا أولي عن هزيمة بل كلما لاحت لي فئة من البحث تحيزت إليها أو ظهرت لي كتيبة من المعاني حملت عليها إلى أن أتيح لي من الفتح ما أفاضته النعمة وحصلت من الغنيمة على ما اقتضته القسمة فينا أنا أرتع في رياض ما نفلت واجتني ثمار ما خولت إذ طلع على جيش التكليف فحصرني وخرج علي كمين التكليف فأسرني فأمسيت في أضيق خناق، وأشد وثاق قد عاقني قيد الاكتساب عن الاشتغال، وصدني كل الكد عن الاهتمام بالطلب والاحتفال فغشيني من القبض ما غشيني وأخذني من الوحشة ما أخذني وتعارض في حكم العقل بين مدهوشاً لا أحسن صنعاً وبقيت متحيراً لا أدري أي الأمرين أقرب إلى نفعاً إن طلبت العلم للكسب فقد أفحشت رجوعاً، وإن تركت الكسب للعلم هلكت ضيعة ومت جوعاً...)[1].

[1] صبح العشى، ١٤/ ١٢٦-١٢٧.

وإذا كان الغزل والنسيب والتشبب يدخل في الموضوعات الاجتماعية التي تناولها أدباء المقامات فلن نجد أفضل من مقامات الشاب الظريف لتصوير هذا الملمح الاجتماعي فقد اشتملت هذه المقامات على موضوع واحد هو الغزل، وقد صرّح الشاب الظريف بأنه (منذ شب عن الطوق مغرى بالغرام والتوق).

وقد وصف النقاد مقامات الشاب الظريف بأنها مقامة طويلية تدور كلها حول الغزل نثراً وشعراً، وقد ترك العصر الذي عاش فيه الشاب الظريف أثراً كبيراً على صناعته النثرية والشعرية.

بدأ الشاب الظريف مقامته على غير الطريقة المعهودة عند أدباء فن المقامات وهي الطريقة التقليدية للراوي والبطل، ففي المقامات الخرى يقوم الإطار الفني للمقامة على شخصيتين رئيسيتين مختلفتين هما: شخصية الراوي وشخصية البطل، فالراوي الذي ينتمي إلى طبقة اجتماعية متوسطة هو الذي يمهد – غالباً – لظهور البطل، يتابعه حيثما حل، وهو في كل هذا يُحسن طريقة تقديم البطل الذي يكون عادة شخصية ساخرة فصيحة تعتمد على الفصاحة والذكاء والحيلة والخداع لنيل هدفه ممن ينخدعون بمظهره.

ولكن الشاب الظريف كان هو الراوي لمقاماته فهو يقول مفتتحاً المقامة: (لم أزل مذ بلغت سنة التمييز، أتولع بنظم الأراجيز، ومذ شب عن الطوق، مغري بالغرام والتوق، أتعمد خلع العذار، في حب السالف والعذار، وأهيم بالشمول والشمائل، وأشرب في زجاجة صفراء كالأصائل، وأقدم على رشف ثغور البيض، ولا أقدم حذراً من ضرب المرهفا ت البيض، وأتوجه لضم أعطاف السمر، ولا أتوجع لضيم انعطاف السمر، واتنزه في كل ناد وواد، وأتنزه عن كل معند ومعاد، فخرجت بعض الأيام إلى الغياض، وولجت بين حياض ورياض، قد ضاع نشرها، وضاء بشرها، وقبّل خد الشقيق بها ثغر الأقاح، وملأت قماريها تلك النواحي صب النواح، فمن جدول يميل كالأيم، شطاه بالزهر كقزح في الغيم، فهو من صور الحباب كالحباب، ومن طرب الاضطراب في عباب، تصفق غدرانها فترقص أغصانها، وتفخر أزهارها، ويشدو هزارها، وتبكي عيون نرجسها بينبوع من بجسها...)[1].

[1] ديوان التلغفري، محمد بن يوسف بن مسعود، ويليه رقيقة المبنى رائقة المعنى لتاج الأدباء شمس الدين المعروف بالشاب الظريف، تصحيح محمد سليم الأنسي، بيروت: مكتبة الأنسية، ص٥٥.

ويقول الشاب الظريف في موقع آخر من هذه المقامة الغزلية: فلما جرد الصبح حسامه، وأذهب غيهب الليل ظلامه، خرجت وقد كثر الشوق والتشوق وأعقب ما تزايد من التأرق والتحرق، فهديت إلى بعض الأصحاب، بدمع كالسحاب وأنشدته:

**صبوت إلى الصبابة والغرام ووودع ناظري طيب المنام**

**وسام القلب من أولاد سام غزال طرفه من آل حام**

فحين أعلمته من الوجد ما أجد، ومن الكمد ما تكابده الكبد، وفهم من به همي وهيامي، ومن إليه ترامى مرامي، أنشد:

**فكم من مغرم قد مات عشقاً بمن تعنى ولم يظفر بوصل**

فلما سمعت ما قاله ووعيت، لويت عطفي عنه وما ألويت، ورحت وبي جوي وبي، وعلمت أن ليس لي نصير في الغرام ولا ولي...)[1].

وهذا الغرض الشعري (الغزل) من أكثر الأغراض والموضوعات التي اهتم بها النقاد ووضعوا للقصيدة الغزلية قواعد وأسس جعلوا التخلي عنها من العيوب الشعرية، يقول قدامة بن جعفر: (ولما كان المذهب في الغزل إنما هو الرقة واللطافة والشكل والدماثة، كان ما يحتاج فيه أن تكون الألفاظ لطيفة مستعذبة مقبولة، غير مستكرهة، فإذا كانت جاسية مستوخمة كان ذلك عيباً، إلا أنه لما يكن عيباً على الإطلاق، أمكن أن يكون حسناً، إذ كان قد يحتاج إلى الخشونة في مواضيع مثل ذكر البسالة والنجدة واليأس والمرهبة، كان أحق المواضع التي يكون فيها عيباً الغزل لمنافرته تلك الأحوال وتباعده منها)[2].

ويبدو من كلام الشاب الظريف السابق ثأن المجتمع في عصره كان متسامحاً بعض الشيء يسمح بلقاء المحبين، وقد كان الشاعر العربي في العصور الأولى يكثر التحدث عن العفاف أو عن التمكن من الشهوات، دون أن يعبر في ذلك عن حقيقة أخلاقية ماثلة في نفسه حتى أصبح ذلك مذهباً أدبياً في قرون الشعر الأولى

---

[1] ديوان التلعفري، ص٥٩.

[2] نقد الشعر. قدامة بن جعفر. ــ ط١. ــ بيروت: دار الفكر، ص٣٦.

**المبحث الثالث :الموضوعات الدينية في مقامات هذا العصر**

تبدأ مشكلة العلاقة بين الشعر والأخلاق مبكرة في تاريخ النّقد الأدبي بالفصل – في الموضوع – بين الشعر والدين؛ فالشعر عند الأصمعي مجاله الشر، وإذا تناول الموضوعات الأخلاقيّة والدينيّة (الخير) ضعف وتهافت، وقد كان هذا المعنى واضحاً عند نشر الأخلاقيين تزمتاً، ولهذا أخرجوا من الشعر ما كان وعظاً أخلاقياً، وعندما استادر النقد إلى ما يشبه الخاتمة عند ابن خلدون ظللنا نسمع أن من يحاول القول في الزهديات والربانيات والنبويات يسقط سقوطاً ذريعاً، ويعلل ذلك بسبب ابتذال معانيها بين الناس، فالالتفاتة صحيحة، ولكن التعليل ربما لم يكن كافياً[1].

ولكن العلاقة بين الشعر والدين (أو الشعر والأخلاق) اقترنت لدى النقاد بموقف دفاعي عن الشاعر –دون الشعر – فإذا عيب أبو تمام بأنه قليل التدين لا يؤدي الصّلوات في أوقاتها، دافع عنه الصولي بأن الدين ليس مقياساً في الحكم على الشاعر، وإذا عاب بعضهم المتنبئ بأنه مستهتر في شعرره ببعض الشؤون الدينية دافع عنه القاضي الجرجاني – لا عن شعره – بأن الشاعر لا يعاب لدينه، إذا لو كان الأمر كذلك لاطرح الجاهليون وقد كانوا وثنيين أو لاطرح شعر أبي نواس وكان شديد التهتك والاستهتار. فالفصل في الموضوع بين الدين والشعر لم يتضح إلا عند رجل من أشد النقاد تحرجاً – وهو الأصمعي.

وللعلاقة بين الشعر والأخلاق زاوية أخرى يمثلها المتأثرون بالثقافة اليونانية، فقد تنبّه بعضهم من خلال الفهم الخاطئ لغاية المأساة (التراجيديا) إلى أن الشعر اليوناني كان يقصد إما الحث على فعل أو الردع عن فعل (أي أن محوره هو الفضيلة) وكان في ثنايا ذلك اتهما للشعر العربي؛ لأنه يتحدث عن الظلم والتهتك والإغراء بالرذائل ومحاكاة الدواب أحياناً!

ولهذا كان ذلك الاتهام يعني أن الشعر العربي – في جملته – مناقض للأخلاق، ويتبدى هذا الاعتقاد على أتمه عند المتأثرين بجمهورية إفلاطون مثل مسكويه وابن رشد، فهذان الفيلسوفان اتخذا كلام افلاطون في نقد الشعر اليوناني سبيلاً إلى تطبيق نظريته على الشعر العربي، ولما كانت الغاية النهائية من هذا تربوية، فإن

---

[1] تاريخ النقد الأدبي عن العرب: نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري. إحسان عباس. ـــ ط٤. ـــ بيروت: دار الثقافة، ١٩٨٣م، ص٣٧.

كلا منهما نصح ان يجنب الناشئة الشعر الذي يتحدث عن النسيب أو مدح الطغـاة، لأن ذلك ذو أثر ردئ في نفوسهم؛ ويشبههما في هذا الموقف ابن حزم الذي كـان خاضـعاً لنظرته الفقهية في الحكم على الشعر، كانت الزاوية في النزر إلى الشعر هي (التربيـة) نجد الناظرين إليه يستبعدونه، لاقتناعهم أنه من العوامل الهدّامة أخلاقياً. وخلاصة ذلـك كله:

١. إذا كان الناقد يدافع عن الشاعر أنكر التعارض بين الشعر والأخلاق.
٢. إذا أخذ في النقد التطبيقي تحوّل بالنقد إلى المقاييس الأخلاقية.
٣. إذا تحدث عن التربية جعل الشعر (ما عدا القليل منه) مـسئولاً عـن التحول بالنفس نحو الشّر[١].

وترى الباحثة أن هنالك علاقة وثيقة بين الأدب والأخلاق تشبه =- إلى حد ما – علاقة الروح بالجسد بحيث يصعب فصل هذه عن تلك لأن الأدب إنما هو تعبير عن المجتمع وقضاياه، والأخلاق هي عماد هذا المجتمع ولا يمكـن أن يـستقيم أي مجتمـع بدون أخلاق كما وتزداد أهمية الأدب من تسجيله وتصويره للجوانـب المختلفـة التـي ترتبط بالحياة فكلما استطاع أن يعبر عن القضايا الاجتماعيـة والأخلاقيـة وإبرازهـا للمجتمع زادت أهميته.

والشاعر هو الذي ينشر ويبشر بالأخلاق وهذا ما يشير إليه رأي النقـاد فـي موضوع القصيدة: (أول الشعر إنما يكون بكاء على دمن، أو تأسـفاً علـى زمـن، أو نزوعاً لفارق، أو تلوعاً لاشتياق، أو تطلعاً لتلاق، أو أعذاراً إلى سفيه، أو تغمداً لهفـوة، أو تنصلاً من زلة، أو تحضيضاً على أخذ بثأر، أو تحريضاً علـى طلـب أو تـار، أو تعديداً للمكارم، أو تعظيماً لشريف مقاوم، أو عتاباً على طويـة قلـب، أو متابـاً علـى مفارقة ذنب، أو تعهداً لمعاهد احباب، أو تحسراً على مشاهد اطراب، أو ضرباً لأمثـال سائرة، أو قرعاً لقوارع زاجرة، أو نظماً لحكم بالغة، أو تزهيداً في حقيـر عاجـل، أو ترغيباً في جليل آجل، أو حفظاً لقديم نسب، أو تدويناً لبارع أدب)[٢].

فهذا النّص يبين لنا أنَّ غاية وهدف الشعر بالإضـافة إلـى رسـالة الـشاعر ووظيفته عند قدومه.

---

[١] تاريخ النقد الأدبي عن العرب، إحسان عباس، ص٣٨.

[٢] تاريخ النقد الأدبي عن العرب، إحسان عباس، ص.

هنالك من ألف مقامات بهدف توصيل العظات الدينية والعظات الدينية والنصائح الخلقية إلى القارئ مثلما فعل أبو القاسم الزمخشري المتوفي سنة (٥٣٨هـ) ومنهم من استخدم شكل المقامة ليتناول بشكل غير مباشر بعض الموضوعات الاجتماعية والسياسية. بل إن رجال الدين والمتصوفون الذين ينهون عادة عن قراءة الكتب الدنيوية كانوا يقبلون على قراءة مقامات الحريري ويطلقون عليها (طبق الحلوى).

ويمكن القول إن مقامات الزمخشري الّتي تمثل تيّاراً مختلفاً من المقامات، لخلوّها من الرّاوي والبطل والرحلة والاغتراب والحوار والمفاجآت، تصعد نموذج حقيقي لدراسة الموضوعات الدينية في المقامات، وذلك لأنّ الموضوعات والمواقف فيها تكاد تكون مكرسة أساساً للوعظ. وكذا مقامات ابن الجوزي التي تمثل مجموعة من النصوص ذات الدلالات العميقة في مجالات لمعارف الدينية والحقائق الإلهيّة، وقد انعكس حفظ ابن الجوزي للقرآن الكريم على أسلوبه، فاقتبس منه كثيراً اقتباساً بارعاً وضمّن مقاماته أشعاراً وأمثالاً لا تحصى زيادة على التلميح بحوادث التاريخ وقصص الغابرين، مما يفيد موعظة ويزيد اعتباراً.

وظهرت الموضوعات الدينية في المقامات منذ نشاتها، فقد أكثر رواد هذا الفن من ذكر مثل هذه الموضوعات ومن الأمثلة على ذلك: ما ذكره بديع الزمان في المقامة المارستانية وهو السني المذهب، فقد قدم حجاجاً في المذاهب الدينية فنراه يسفه عقائد المعتزلة ويرد عليها بشدة وقسوة ويستشهد أثناء تنقلاته هذه بين ربوع الثقافة بالقرآن الكريم والحديث الشريف، فهو يقول: (دَخَلْتُ مَارِسْتَانَ البَصْرَةِ وَمَعِي أَبُو داوُدَ المُتَكَلِّمُ، فَنَظَرْتُ إِلَى مَجْنُونٍ تَأْخُذُنِي عَيْنُهُ وَتَدَعُنِي فَقَالَ: إِنْ تَصْدُقِ الطَّيْرُ فَأَنْتُمْ غُرَبَاءُ، فَقُلْنَا: كَذلِكَ، فَقَالَ: مَنِ القَوْمُ لله أَبُوهُمْ؟ فَقُلْتُ: أَنَا عِيسَى ابْنُ هِشَامٍ وَهَذَا أَبُو دَاوُدَ المُتَكَلِّمُ فَقَالَ: العَسْكَرِيُّ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، فَقَالَ: شَاهَتِ الوُجُوهُ وَأَهْلُهَا إِنَّ الخَيْرَةَ لله لا لِعَبْدِه، وَالأُمُورَ بِيَدِ الله لا بِيَدِه وَأَنْتُمْ يا مَجُوسَ هذِهِ الأُمَّةِ تَعِيشُونَ جَبْراً، وَتَمُوتُونَ صَبْراً وَتُسَاقُونَ إِلَى المَقْدُورِ قَهْراً، وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمِ القَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ، أَفَلا تُنْصِفُونَ، إِنْ كَانَ الأَمْرُ كَمَا تَصِفُونَ؟ وَتَقُولونَ: خالِقُ الظُّلْمِ ظَالِمٌ! أَفَلا تَقُولُونَ: خَالِقُ الهُلْكِ هَالِكٌ؟ أَتَعْلَمُونَ يَقِيناً، أَنَّكُمْ أَخْبَثُ مِنْ إِبْلِيسَ ديناً؟ قَالَ: رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي، فَأَقَرَّ وَأَنْكَرْتُمْ وَآمَنَ وَكَفَرْتُمْ، وَتَقُولونَ: خُيِّرَ فَاخْتَارَ، وَكَلاَّ فَإِنَّ المُخْتَارَ لاَ يُبْعَجُ بَطْنَهُ، وَلاَ يَفْقَأُ

عَيْنُهُ وَلا يَرْمِي منْ حالقِ ابْنَهُ، فَهَل الإكْرَاهُ إلاَّ مَا تَرَاهُ؟ وَالإكْرَاهُ مَـرَّةً بِـالمَرَّةِ وَمَـرَّةً بالدِّرَّةِ. فَلْيُخْزِكُمْ أَنَّ القُرْآنَ بَغِيضُكُمْ، وَأَنَّ الحَديثَ يَغِيظُكُمْ، إذَا سَمِعْتُمْ: " مَنْ يُـضْلِلِ اللهُ فَلا هَادِيَ لَهُ " أَلْحَدْتُمْ وَإِذَا سَمِعْتُمْ: " زُوِيَتْ لِيَ الأَرْضُ فَأُرِيـتُ مَـشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَـا " جَحَدْتُمْ وَإِذَا سَمِعْتُمْ: " عُرِضَتْ عَلَيَّ الجَنَّةُ حَتَّى هَمَمْتُ أَنْ أَقْطِفَ ثِمَارَهَـا، وَعُرِضَـتْ عَلَيَّ النَّارُ حَتَّى اتَّقَيْتُ حَرَّهَا بِيَدِي " أَنْغَضْتُمْ رُؤُوسَكُمْ وَلَوَيْتُمْ أَعْنَاقَكُمْ وَإِنْ قِيلَ: " عَـذابُ القَبْرِ " تَطَيَّرْتُم، وَإِنْ قِيلَ: " الصِّرَاطُ " تَغَامَزْتُمْ وَإِنْ ذُكِرَ المِيزَانُ قُلْتُمْ: مِنَ الفِرْغِ كِفَّتَـاهُ، وَإِنْ ذُكِرَ الكِتابُ قُلْتُمْ: مِنَ القِدِّ دِفَّتَاهُ، يَا أَعْدَاءَ الكِتابِ وَالحَدِيثِ، بِماذَا تَطَيَّـرُونَ؟ أَبِـاللهِ وَآياتِهِ وَرَسُولِهِ تَسْتَهْزِئُونَ؟. إنَّما مَرَقَتْ مَارِقَةُ فَكَانُوا خَبَثَ الحَدِيثِ، ثُمَّ مَرَقْتُمْ مِنْها فَأَنْتُمْ خَبَثُ الخَبِيثِ، يَا مَخَابِيثَ الخَوارِجِ، تَرَوْنَ رَأْيَهُمْ إلاَّ القِتَالَ!)[1]

وإذا نظرنا للمقامات في القرنين الثامن والتاسع الهجريين نجد الأثـر الـديني الواضح وذلك لانتشار النزعة الصوفية في هذين القرنين، ويتضح ذلك بصورة أوضـح في مقامات ابن الوردي الذي افتتحها بالمقامة الصوفية وهي تشير إلى تأثر هذا الأديـب بتلك النزعة الصوفية التي كانت تشيع في المجتمع آنئذ.

ففي هذه المقامة يقول ابن الوردي: (حكى إنسان من معـرة النعمـان، قـال: سافرت إلى القدس الشريف، سفلا منكر بعد التعريف، فاجتزت في الطريق بواد وفانـا لفحة الرمضا وقال: حكمت على الوادي الذي تروع حصاه حالبة العذارى، فقلنـا دائـم الحكم والإمضا، وإذا عين كعين الخنساء تجري على صخر، ويقال ماؤها أنا سيد ميـاه هذا الوادي ولا فخر، فرويت كيد صاد من تلك العين، ولكن نغّـص منظرهـا الحـسن بذكر ظمأ الحسين، هذا وماؤها يجري على رأسه خدمة للوراد، ويطوف بنفسه سـواء العاكف فيه والباد، فأسبغت وضوئي منه أسباغ الذروع، وصليت ركعتين فوقّت فيهمـا سهام دماء من قسي ركوع، وسألت اله تعالى حسن منقلبي، ورجوت منه أن يعوضـني عن تعبي، بصحبة من يدلني عليه، ورؤية من يقربني منه إليه...)[2].

ففي هذا النص يشير الكاتب إلى أنه سافر إلى القدس الشريف وللقـدس لـدى المكسلمين بصورة عامة مكانة عظيمة، فهي مسرى النبي الكريم (ﷺ) وقـد ورد ذكـر

---

[1] مقامات بديع الزمان الهمذاني. بديع الزمان الهمذاني. ـــــ بيـروت: دار الآفـاق الجديـدة، ١٩٨٢، ص٣١.

[2] ديوان ابن الوردي، ص١٦.

ذلكفي القرآن الكريم، حيث قال: (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّه هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)[١]

قد أشار الحديث النبوي الشريف إلى أن المسجد الأقصى بالقدس من المساجد التي يُشدُّ إليها الرحال، فعن أبي هريرة (ﷺ) عن النبي (ﷺ) قال: (لا تُشدّة الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام ومسجد الرسول (ﷺ) ومسجد الأقصى)[٢].

وإذا نظرنا إلى مقامات ابن المعظم نجد أنها خدمت العلم والتصوفوذلك لتأثير نزعته الصوفية التي نشأ عليها، وقد نادى بالتفرد وعدم التزوج باعتبار أنّ الأنبياء لم يتزوجوا، وأن الله تعالى لم يتخذ صاحبة ولا ولد، والأجدر بالإنسان الصوفي العالم أن يتخلق بأخلاق الخلاق.

وما ذهب إليه ابن المعظم هذا يناقض الفطرة السليمة فقد خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان وأودع فيه عدة ميول وغرائز كلها ضرورية لحفظ جنسه ونقاء نوعه والإنسان بطبعه يميل إلى إشباع تلك الغرائز لأنها من أقوى الدوافع عنده واعقدها نظراً لتداخل عوامل اجتماعيّة، وثقافية ونفسيّة، خاصة ما يؤثر في الشعور من اتصالات وعواطف وذكريات وخيالات في ذهن الإنسان.

لذلك شرع الإسلام الزواج تلبية لإشباع تلك الغرائز في الإنسان ليسير مع فطرته وميله إلى الجنس الآخر بكل تلاؤم وتجاوب دون أن تعترض عقبة أو ينزلق في منحدر الحياة وحتى يكون هنالك بقاء لنسله وامتداد لنوعه[٣].

ورسالات السماء نظمت العلاقة بين الذكر والأنثى في الجنس البشري وحددت لذلك مساراً سار عليه أتباع الأنبياء والمصلحون في كل زمان ومكان، وأنبياء الله كانوا قدوة البشرية في الزواج وإنجاب الأولاد، قال تعالى: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً)[٤].

---

[١] سورة الإسراء، الآية ١.

[٢] صحيح البخاري، ٣٩٨/١ في ٢٦كتاب التطوع – باب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة حديث (١١٣٢).

[٣] منصور الرفاعي. تربية الناشئة في ضوء السيرة. ـــ بيروت: دار الجيل، القاهرة: مكتبة التراث الإسلامي، ١٩٩٣م، ص٩.

[٤] سورة الرعد، الآية ٣٨.

وجاء الإسلام الحنيف وهو خاتم الأديان السماوية وأعلن الحرب على الرهبانية، وهي عبادة ابتدعها قوم من اتباع الرسل السابقين لم تكن معروفة عند أنبيائهم، ولم يقرها أحد من المصلحين، قال تعالى: (ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ)[1].

وقد كان رسول الله (ﷺ) يراقب أفراد المجتمع ويعالج النفوس المريضة حتى لا يتعثر إنسان في خطاه ويضعف أمام المغريات وينزلق في تيار الشهوات.

فالزواج رباط مقدس وعهد موثق بين الزوجين ليس آنياً ولا مرتبطاً بقضاء شهوة لنيل مصلحة غيره، فهو ليس صفقة تجارية بين شريكين في المعيشة، وليس وسيلة من وسائل الضرورة لإرضاء مطالب الجسد والاستراحة من غوايته الشيطانية

كما تصورته المجتمعات والعقائد الأخرى وإنما الغرض من الزواج أسمى من ذلك، وتتمثل الحكم الجليلة من الزواج في الإسلام في الأمور التي منها:[2]تنظيم العلاقة بين الرجل والمرأة على أساس من تبادل الحقوزق والواجبات.

ومن الملامح الدينية في مقامات ابن المعظم الإكثار من الاستشهاد بالقرآن الكريم والحديث الشريف، ومن الشواهد على ذلك، ما ورد في المقامة الججاجية، حيث قال ابن المعظم: (رمى بي السير والسرى إلى بلد أقسري، فدخلته وأنا ملطوم مظلوم، مرحوم محروم، جائع صائع، حائر باتر، استعدي على ظلوم ملوم، غشوم مشوم، فاستدللت إلى باب السلطان، فأشاروا إلى فقيه فقير، ضعيف حقي، فاستبعدت ذلك جداً، ثم لم أجد من الاستكشاق بداً، قلت وما الدليل على كونه سلطاناً، قالوا بدليل الكتاب والسنة، أما الكتاب فقوله تعالى: (أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ)[3]، فقد جاء في تفسير هذه الآي: قال مجاهد والضحاك، وقتادة: إن المراد من أولي الأمر العلماء وهو عالم ريان، مع أنه ظامئ طيان، وله عزة عالية، وإنت كانت

---

[1] سورة الحديد، الآية ٢٧.

[2] صورة الطفولة في التربية الإسلامية. صالح ذياب الهندي. ــ ط٢. ــ الأردن: دار الفكر للطباعة والنشر، ٢٠٠٠م، ص٢٦

[3] سورة النساء، الآية٥٩.

عليه بزة بالية، أما السنة فإن رسول الله (ﷺ) ولاه الخلافة والسلطنة، أما السلطنة فقوله (ﷺ): (العالم سلطان الله في أرضه فمن وقع فيه فقد هلك)[١] وأمّا الخلافة ففي أحاديث منها قوله (ﷺ): (ألا أدلكم على خلفائي، قالوا ومن هم يا رسول الله، قال الذين يأتون من بعدي ويروون أحاديثي وسنتي ويعملونها الناس)[٢] ، وقال (ﷺ): (الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر خليفة الله في الأرض) وخليفة كتابه وخليفة رسوله...)[٣].

ومن ذلك أيضاً ما جاء في المقامة الخامسة وهي المقامة الطرماحية حيث قال ابن المعظم: (... اعلم أنّ كلّ ما ذكره لك مدح وليس بقدح، وتزكية وليس بجرح، اما ما رماك به من الكفر، فالكفر في اللغة إنما هو الستر، يقال لبحر كافر ولليل كافر وولزارع كافر، وللابس السلاح كافر لما في الكل من الستر فلعله عنى به هذه الأشياء، وأما ما رماك به من الإلحاد فالإلحاد في اللغة إنما هو الميل ومنه اللحد فكأنه مدحك بميلك إلى الحق، وكذلك إن رماك بالتهوُّد، فالتهوُّد التوبة، ومنه قوله (إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ)[٤]، او التنصر فإنه تفعل من النصر ة، أو الرفض، فالرفض هو الترك وإنك تارك للباطل قابل لحق، أو رماك بالتشبه فإنك تشبه الجواد بالغمام، والشجاع بالضرغام، أو رماك بالاعتزال فالاعتزال البعد والترك، قال تعالى: (فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ)[٥] وقوله يا ظالم، فالظالم الذي يشرب اللبن قبيل أن يروب ويخرج زبده...)[٦].

وقد حفلت مقامات القلقشندي أيضاً بهذا النوع من الاستشهاد من الكتاب العزيز ومن ذلك قوله: (... فلما سمعت منه ذلك وأعجبني من الوصف ما هناك دنوت منه دنو الواجل وجلست بين يديه جلوس السائل وقلت هذه وأبيك صفات الملوك بل ملوك الصفات وأكرم الفضائل بل أفضل المكرمات ولم أك أظن أن للكتابة هذا الخطر الجسيم وللكتاب هذا الحظ العظيم فأعرضت مغضباً ثم فوق بصره إلى معجباً وقال هيهات

---

١ سبق تخريجه.

٢ المعجم الأوسط. أبوالقاسم سليمان بن أحمد الطبراني

٣ المقامات الإثنتا عشر: الشيخ محمد بن المعظم' ص١٢.

٤ سورة الأعراف، الآية ١٥٦.

٥ سورة مريم، الآية ٤٩.

٦ المقامات الإثنا عشر. الشيخ محمد المعظم، ص١٢.

فاتك الحزم وأخطاك العزم إنها لمن أعظم الصنائع قدراً وأرفعها ذكراً نطق القرآن الكريم بفضلها وجاءت السنة الغراء بتقديم أهلها فقال تعالى جل ثناؤه وتباركت أسماؤه (اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ* عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)[١]

[١] سورة العلق، الآيات ٣-٥.